٥ ـ الشـــعر *

في صدر الاسلام وعهد بني أمية

بقلم احمد حسن الزيات

شعر الشيعة

ورث عليّ بن أبي طالب بحكم مولده ومَرباه مناقب النبوة ، ومواهب الرسالة ، وبلاغة الوحي ، وصراحة المؤمن ، وبسالة المجاهد ، فأجمع الناس على إجلاله وكادوا يطبقون على حبه ؛ حتى من كتب عنه من الأوربيين قد شاركوا المسلمين في هذه العاطفة ، فقد قال فيه الكاتب الانكليزي كارليل : « أما ذلك الفتى عليّ فلا يسعك إلا أن تحبه ؛ ركب الله في طبعه النبل منذ الحداثة ، وتجلى في خلاله الكرم طوال عمره ، ثم طبعه على العمل ونفاذ الهمة وصراحة البأس ، وآتاه سر الفروسية وجرأة الليث ، وكل ذلك في رقة قلب وصدق إيمان وكرم فعال تليق بالفروسية

* من الطبعة الجديدة لكتاب تاريخ الأدب العربي الذي صدر حديثاً

وقوله يعاتب صديقاً لم يحفظه في مغيبه وعاب شعره :

لي صاحب قد كنتُ أحمل نفعه ... سبقت صواعقه إليّ صبيبه

إلى أن قال :

نبئت قوماً عابني سفهاؤهم ... وشهدت مجلسهم وكنت خطيبه

عابوا وعبتَ بغير حق منطقاً ... لو طال رميك لم تكن لتصيبه

وهب القضاء كما قضيت، ألم يكن ... في محض شعري ما يجيز ضريبه

هلا وقد ذُوِّقت دَرَّ قريحتي ... فذممت حازرَه حمدت حليبه

بل هبّه عيباً لا يجوز ، ألم يكن ... من حق خلك أن تحوط مغيبه

وديوانه مملوء بمثل هذا الشعر الذي هو أقرب إلى رسائل الكتاب منه إلى قصائد الشعراء . أما الكتاب الشعراء في نثرهم فمنهم المرحوم أحمد شوقي بك في كتابه أسواق الذهب ، والزمخشري في أطواق الذهب ، والقاضي الفاضل عبد الرحيم البيسانيّ في رسائله الكثيرة المملوءة بها كتب الأدب

أحمد الزيات

المسيحية » ثم سار عليّ في خصومته وخلافته وسياسته على ضوء هذه الأخلاق ، فما قارف الأثرة ، ولا حاول الفرقة ، ولا راقب الفرصة ، ولا أثار العصبية ، ولا استخدم المال ؛ وإنما أخلص النية للعمرين ، ومحض النصيحة لعثمان ، وأعذر بالحجة لمعاوية ؛ ولكن دنيا الفتوح كانت قد أخذت على عهده تتجاهل دين البساطة والزهد ، ولم تَعُد السياسة الدينية وحدها قادرة على كبح النفوس المفتونة بمال معاوية في الشام ، وثراء الرافدين في العراق ، فانتشر أمره ، وانصدعت خلافته ، ثم قُتل مظلوماً في محرابه ؛ فكان مجياه ومماته تاريخاً دامياً للفضيلة المذبة والنفس المطمئنة الشهيدة . ثم ورّث بنيه وأهليه ذلك العزم الثائر وهذا الجد العاثر ، فدب الموت للحسن سراً في كأس مذعوفة ، وقتل الحسين قِتْلة لا يزال يرعد من هولها الدهر

وتلاحقت الفواجع الأموية فصرع زيد وقتل يحيى ، وافتنّت المنايا الرواصد في اختلاج بني عليّ ، وهم يقابلون هول الفواجع الظاهرة والباطنة بالشجاعة والصبر والاحتساب ، حتى أسفرت حول وجوههم طفاوة من التنزيه والتقديس ، وتخللت محبتهم قلوب المسلمين ، ولا سيما الشيعة . فان ندم هؤلاء على خذلانهم إياهم ، وألمهم لما رأوا من اضطهادهم وأذاهم ، رفعا في نفوسهم ذلك الحب حتى أشرفا به على مقام العبادة ؛ ثم ظهر ذلك الحب في صور من العقائد : فقالوا بالوصية ، وجعلوا الامامة من أصول الدين ، وحصروها في عليّ وبنيه ، وطعنوا في إمامة الشيخين . ولم يتهيأ لهم السلطان ، ولم تسعفهم القدرة ، فاعتمدوا على استمالة القلوب وترقيقها بالبكاء والندب ، وتصوير الآلام ، وإعلان الفضائل ، فاصطبغ شعرهم بالحزن العميق ، والرثاء الناثح ، والمدح المبتهل ، والعصبية الحاقدة . على أن هذه الخصائص لم تكن واضحة في شعر أوائل الشيعة وضوحَها في شعر الأواخر منهم ، فان تغلغل الفكرة في أصل العقيدة ، وتنكيل الحاكمين بآل البيت ، واضطهاد الولاة للشيعة ، إنما تدرجت قسوةً وقوة مع الزمن ، فضلاً عن قلة شعراء الشيعة في هذا العصر لأفساد الأمويين الضمائر بالحديد والذهب ؛ فشعرهم بدأ ولاءً صادقاً ، ومدحاً خالصاً ، وهجاء سراً ، ثم اشتد فصار مفاضلة جريئة ، ومعارضة شديدة ، ومناقشة فقهية ، ودعاية حزبية . ولعل ذلك

يتجلى لك فيما ذكرناه وفيما سنذكره من الأمثلة . فمن التعبير عن العاطفة القوية الساذجة قول أبي الأسود الدؤلي :

يقول الأرذلون بنو قشير ... طوال الدهر لا تنسى عليّا !
بنو عمّ النبي وأقربوه ... أحبُّ الناس كلهم إليّا
أحبهمُ لحبّ الله حتى ... أجيءُ إذا بُعثت على هَويا
فان يك حبهم رشداً أُصِبْهُ ... ولست بمخطئٍ إن كان غيّا

ومن المدح والمفاضلة قول أيمن بن خزيم الأسدي :

نهاركمُ مكابدة وصوم ... وليلكمُ صلاةٌ واقتراء
أأجمكم وأقواماً سواءٌ ... وبينكمُ وبينهم الهواء ؟
وهم أرض لأرجلكم وأنتم ... لأرؤسهم وأعينهمُ سماء

ومن الهجاء قول ابن مفرغ الحميري :

ألا أبلغ معاوية بن صخر ... مغلغلةً من الرجل اليماني
أتغضب أن يقال أبوك عفٌّ ... وترضى أن يقال أبوك زانى ؟
فأشهد إن رحمك من زيادٍ ... كرحم الفيل من ولد الأتان
وأشهد أنها ولدت زياداً ... وصخر من سُمَيّة غير دانى

وقول عبد الله بن هشام السلولي في يزيد بن معاوية :

حُشينا الغيظ حتى لو شربنا ... دماء بني أمية ما روينا
لقد ضاعت رعيتكم وأنتم ... تصيدون الأرانب غافلينا

ومن المناقشة الجدلية قول الكميت في الخلافة :

يقولون لم يورث ولو لا تراثه ... لقد شركت فيه بجيلٌ وأرحبُ
ولا انتشلت عضوين منها مُحاربٌ ... وكان لعبد القيس عضو مؤرّب
فان هي لم تصلح لحي سواهمُ ... إذن فذوو القربى أحق وأقرب
فيالك أمراً قد تشتّت جمعُه ... وداراً ترى أسبابها تتقضب
تبدلت الأشرار بعد خيارها ... وجُدّبها من أمة وهي تلعب !

ويكاد الكميت بن زيد الأسدي بقصائده الهاشميات يكون الشاعر الفذ لبني هاشم ؛ فقد مدحهم واحتج لهم ودافع عنهم بلسان صادق واعتقاد خالص ونفس جريئة وقريحة سمحة . ولما أهدر هشام بن عبد الملك دمه لجأ على ما أُرجح إلى التقيّة في شعره على عادة الشيعة ، يقال من كلمة يمدحه فيها :

فالآن صرتُ إلى أميّة والأمور إلى المصائر
يا ابن المقائل للعقا ... ئل والجحاجحة الأخايِر
من عبد شمس والأكا ... بر من أمية فالأكابر
لكم الخلافةُ والألا ... ف برغم ذي حسد وواغر

ومهما يقل الكميت فان عاطفة شعراء الشيعة ستظل كما قلنا مكظومة بالطمع والخوف حتى تنبجس في عهد بني العباس نفثات غيظ ، وحسرات حزن ، وعبرات ألم ، في شعر السيد الحميري ، ودعبل الخزاعي ، وديك الجن ، ومطيع بن إياس ، وأبي الشيص ، والعكوك ، وأضرابهم

شعر الخوارج

وأما الخوارج — وجمهرتهم من البدو الجفاة والسذج — فقد قام أمرهم على الصلابة في الرأي ، والمكابرة في القول والاشتطاط في الحكم ، والتشدد في الدين ، والغلو في العبادة ، والقسوة في المعاملة ، والاعتماد على الحرب . شايعوا عليّا وآزروه حتى قبل التحكيم ، فقالوا له : حكّمتَ الرجال ولا حكم إلا لله ! ثم خرجوا عليه وأبوا أن يرجعوا إليه إلا إذا أقر على نفسه بالكفر ، ونقض ما عاهد معاوية عليه ، فأبى عليهم ما سألوا ، وأوقع بهم يوم النهروان ، فزاد ذلك في حنقهم عليه وخلافهم له فائتمروا به واغتالوه . واستعرضوا أعمال الخلفاء وعقائد الناس ، فخطأوا بعضاً وكفّروا بعضاً ؛ ثم ذهبوا إلى أن الخلافة تصح في غير قريش وفي غير العرب ، وأن العمل جزء من الايمان ، فحرصوا كل الحرص على أداء الشعائر واجتناب الكبائر ، ولاذوا بكور الجبال يدعون جهراً إلى مذهبهم دون مواربة ولا تقية ولا هوادة ؛ فكانوا في الدين كما قال صاحبهم أبو حمزة الشاري : « أنضاء عبادة ، وأطلاح سهر ؛ قد أكلت الأرض أطرافهم ، واستقلوا ذلك في جنب الله ؛ فاذا كان الجهاد ورعدت الكتيبة بصواعق الموت ، استخفوا بوعيد الكتيبة لوعيد الله ، ومضى الشاب منهم قُدُماً حتى اختلفت رجلاه في عنق فرسه ، وتخضبت بالدماء محاسن وجهه ، فاذا أنفذه الرمح جعل يسعى إلى قاتله ويقول : « وعجلت اليك ربِّ لترضى »

وكانوا مع هذا الورع الشديد والخشية البالغة يقسون على مخالفيهم ، فلا يرحمون ضعف المرأة ، ولا براءة الطفل ، ولا شيخوخة الهرم ، ولا وشائج الرحم ، لأنهم — كما ظنوا — باعوا أنفسهم وأموالهم لله بأن لهم الجنة ، فقطعوا أسباب الحياة ، وأماتوا عواطف الدنيا ، وقاتلوا وقُتلوا في سبيل هذا المذهب

وتلك الغاية . وهم لصراحة بداوتهم ، وشدة عصبيتهم ، وخلوص عقيدتهم ، وما تقتضيه دعوتهم من ادمان الحجاج والمناظرة ، أسلس الناس منطقاً ، وأروعهم كلاماً ، وأمتنهم شعراً ؛ ولكن الشعر كان عندهم فى المحل الثانى من الخطابة ، لقيام أمرهم على الاقناع والجدل بآيات الله وأحاديث الرسول ، وغناء الشعر فى ذلك قليل . فاذا ما صمد الخارجى إلى الخصم ، أو هجم على الموت ، أو وقع فى الأسر ، جاشت نفسه بتين الرجز ، أو رصين القصيد ، بضمنه وصفه للحرب ، وولهه للقتال ، وزهده فى الحياة ، واستخفافه بالموت ، وشوقه إلى الشهادة ، وظمأه إلى الجنة ، فى لفظ جزل وأسلوب قوى ؛ وقلما يدور شعرهم على غير ذلك . فمن الرجز قول أم حكيم :

أحمل رأساً قد سئمت حمله ... وقد مللت دهنه وغسله

ألا فتى يحمل عنى ثقله !

ومن القصيد قول معاذ بن جوين يحرض قومه وهو أسير :

ألا أيها الشارون قد حان لامرئ ... شرى نفسه لله أن يترحلا

أقيم بدار الخاطئين جهالة ... وكل امرئ منكم يصاد ليُقتلا

فشدوا على القوم العداة فانها ... أقامتكم للذبح رأياً مضللا

ألا فاقصدوا يا قوم للغاية التى ... إذا ذكرت كانت أبر وأعدلا

فيا ليتنى فيكم على ظهر سابح ... شديد القصيرى دارعا غير أعزلا

فيا رُب جمع قد فللت ، وغارة ... شهدت ، وقرن قد تركت مجندلا

وقول الطرماح بن حكيم :

لقد شقيتُ شقاءً لا انقطاع له ... إن لم أفز فوزة تنجى من النار

والنار لم يَنجُ من لهيبها أحد ... إلا المنيبُ بقلب المخلص الشارى

أو الذى سبقت من قبل مولده ... له السعادة من خلاقها الباوى

وقوله :

وأمسى شهيداً ثاوياً فى عصابة ... يصابون فى فج من الأرض خائف

فوارس من شيبان ألف بينهم ... تُقى الله نزالون عند الزواحف

إذا فارقوا دنياهمو فارقوا الأذى ... وصاروا إلى ميعاد ما فى المصاحف

وكقول قَطَرِى بن الفجاءة فى يوم دولاب :

فلم أر يوماً كان أكثر مقصصاً ... يعج دماً من فائظ وكليم

وضاربة خداً كريماً على فتى ... أغر نجيب الأمهات كريم

أصيب بدولاب ولم تك موطناً ... له أرض دولاب ودير حميم

فلو شهدتنا يوم ذاك وخيلنا ... تبيح من الكفار كل حريم

رأت فتية باعوا الاله نفوسهم ... بجنات عدن عنده ونعيم

وقليلاً ما يجادل الخوارج بالشعر ويقارعون بالهجاء ، لاعتمادهم فى الجدل على الخطابة ، وفى القراع على السيف . ومن هذا القليل قول بعضهم فى الجدل وقد هزم أربعون منهم ألفين لابن زياد :

أألفا مؤمن فيما زعمتم ... ويقتلكم بآسك أربعونا

كذبتم ليس ذاك كما زعمتم ... ولكن الخوارج مؤمنونا

هى الفئة القليلة قد علمتم ... على الفئة الكثيرة ينصرونا

وقول عمران بن حطان فى هجاء الامام :

لله در الرادى الذى سفكت ... كفاه مهجة شر الخلق انسانا

أمسى عشية غشاه بضربته ... مما جناه من الآثام عُريانا

وما حمله على ذلك إلا أنه من القَعَدة لضعفه عن الحرب لكبر سنه فجاهد بلسانه

الزيات